

خوشا قديمة على وجه طاولتي

صعد من الباب الأمامي، ووقف خلف السائق يبحث بعينين مشعيتين قلقيتين عن مقعد... أطلت من بين رؤوس الركاب يد مشيرة.. تقدم خطوات متمسكا بجنبات المقاعد ووضع حقيبته في الدرج المخصص للأمتعة، وجلس دون أن يتكلم، التفت الرجل إليه بوجه ناضر هادئ وهز رأسه قائلا:

بقلم: د. حسن القشتول
المغرب

- السلام عليكم.
فرد فوراً:
- وعليكم السلام. معذرة كان من الواجب أن...
- لا بأس يا أخي، فالشرود آفة زماننا، اسمي عبدالرحمن.
- وأنا عماد.
- أهلاً وسهلاً.

تلهى عبدالرحمن، من خلال زجاج النافذة المعتم، بمشاهدة الغابة وأشجارها الجانبية الهاربة في صفوف منتظمة مما تنفته مؤخرة الحافلة.. وانشغل عماد بقراءة كتاب.. تلتقي عيونهما بين الفينة والأخرى، فيتجنب كل منهما النظر في عيني الآخر. وهكذا تستكبر القلوب البشرية فتعمق الحدود الوهمية بين الأنفس، فتضيع كثير من فرص التعارف بين الناس؟

أسند عماد رأسه إلى كفه برهة ثم رفعه وتنفس بعمق، وعبدالرحمن يتابع حركاته عن جنب، فقال له:

- هل تشعر بتعب يا سي عماد؟
- دوار خفيف.
- هذه منحرجات جبال الريف. الراكب فيها كالمستبقي لصراط الجحيم.

أخرج عبدالرحمن من جيبه زجاجة عطر صغيرة، ومسح برأسها على كف عماد. فشم عماد كفه، وأسند ظهره إلى متكأ مقعده في ارتخاء. اختلس عبدالرحمن نظرة في كتاب عماد، فالتقطت عيناه هذا العنوان: (نحو ديداكتيك جديدة للغات) فابتسم وقال:

- ديداكتيك اللغات.. نسبح في بحر واحد إذن.
ناولوه عماد الكتاب، فأخذه ونظر في غلافه، ومرر أوراقه بخفة بين سبابته وإبهامه، ثم أعاده إليه، وقال مداعباً:



– أليس عندك «نحو ديداكتيك جديدة للتربية الإسلامية؟ أين تدرس يا سي عماد؟

وجف قلب عماد وتغيرت ملامحه، وطافت في مخيلته مشاهد حلم ليلة أمس... مغارات مظلمة، وسبورات ضخمة سوداء نخرة تتدلى من الجدران والسقف. وركام من البشر وغير البشر بأنياب صفراء وعيون حمراء. يعرك بعضهم بعضاً وهو معطل الفكر، مقبوض الصدر، منعقد اللسان....

تحسس جيوب معطفه الجلدي الأسود، وأخرج علبة (المارلبورو) وفتحها وقدمها لعبدالرحمن.

– سيجارة؟

– لا، شكرًا.

تناول واحدة ووضعها بين شفتيه وأشعلها بمهارة، وامتص دخانها بعمق، ونفثه في فضاء الحافلة، فامتدت إليه الأعناق في امتعاض، ولما انتبه إلى الوجوه المتبرمة، اختطف السيجارة من بين شفتيه، ووضعها تحت قدمه، وتوجه إلى عبدالرحمن قائلاً في ارتباك:

– غدا ستكون أول غطسة لي في هذا البحر، لا أدري هل أدرك الأعماق أم أختنق فأغرق.

– مبروك يا سيدي. ألسنت مسروراً بمنصبك؟

– كمن يساق إلى الأعمال الشاقة، أو يقل عليه في قفص القُرود، كيف سأواجه عصابات من المراهقين المارين؟ هل أجدني أمتلك من المعرفة والقوة ما يمكنني من رقابهم ونواصيهم؟

ابتسم عبدالرحمن وقال متحرشاً بلباقة:

– وماذا تعلمت في معهد التكوين؟

أجاب كاتماً انفعاله:

– سمعت أقوالاً لاكتها السنة أعجمية، وامتصت روحها، ولهت فضلاً ونا وراء فضلاتها، وصنعوا لنا منها وصفات نصحوا بها من خدرنا، فزادتنا خدراً.. مدارسنا يا سي عبدالرحمن وما تضيق به من عفاريث وصعاليك لا يضبطها إلا خاتم سليمان أو سيف الحجاج أو...

أدركه عبدالرحمن مبتسماً:

– هون عليك يا أخي. انظر هناك هل ترى تلك الأشجار الخضراء؟ ألا تعجبك استقامتها وشموخها؟ ماذا نفعل لو شب فيها حريق؟ أو أصابها داء؟ أو ليس علينا أن نخمدنا بماء قلوبنا ونطهرها بعر أنفسنا إن أوقدها أو لوثها غيرنا في غفلة منا؟ أو ليس هؤلاء الشباب شجيرات لم تختار مثابتها، وقد أصابها ما أصابها، ومع ذلك تقاوم زوايع الشتاء وقيظ الصيف بما تختزنه من نسيم الربيع؟ سكت لحظة، ركز خلالها نظره في عيني عماد، وأضاف:

– إن الكلمة الطيبة الصادقة، والابتسام الحنونة والحزم الأبوي، هي المواد التي تقع في قلوبهم موقع نسيم الربيع في الأشجار، فتؤتي أكلها، وتزداد استقامة

وشموخاً... ألم تكن شجيرات نتطلع إلى من يروي عطشها بماء عطفه، ويتعهد استواءها بمشذب رعايته؟

هز عماد رأسه متظاهراً بالاعتناء، متهرباً من مواصلة السماع، وعاد إلى كتابه، واستدار عبدالرحمن نحو الزجاج يراقب الأشجار المذعورة الهاربة...

توقفت كل العجلات عن الدوران، فوقف عبدالرحمن ومد يده إلى عماد في مصافحة وداع. أهكذا يفارق الكف الكف بعد لحظة ألفة باركتها قطرة عطر...؟ فرغ مقعده، ففرغ قلب عماد، وتحرك ليجلس في مكان عبدالرحمن ويشاهد الأشجار، فوقعت عيناه على دفتر صغير، فالتقطه، ووقف بخفة وأطل فصدم رأسه الزجاج. لكن عبدالرحمن كان قد اختفى.

نظر عماد في الدفتر، وتردد لحظة ثم فتحه، وقرأ في الصفحة الأولى: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩).

تأمل الغابة والسماء، وتابع القراءة فقرأ عنواناً يتوسط الصفحة هكذا:

أيام غير مؤرخة

أيام الشيطنة:

بدأت هذه الأيام بعدما مزق أبي وأمي ما كان بينهما من ميثاق، وزجا بي بين جدران القسم الداخلي، فأصبحت رقماً وتحول الدلال زجراً والحنان قهراً، فتولد في أحشائي مارد نصبني زعيماً للشغب، وأميراً للمراء والمجادلة.. أتلدذ بمغامراتي، أذيق المدرسين علقم المهنة، أعاكس وأشاكس، أكسر شوكة المتصلب، وأكشف عورة المائع، لا أقيم للتهديد وزناً، ولا أعير للنصح أذناً، ديدني التخريب والتدمير.. عروقي تنتفض طاقة وعيوني تلتهب حماسة، أغوص في أعماق كل شيء، أبحث عما ضاع مني، عن منبع ثر يطفئ غلي، عن نسيم بارد ينعش روحي، فلا ألقى إلا شواظاً وسموماً..

يوم المحاكمة:

في هذا اليوم أوقفت أمام أعضاء المجلس التأديبي.. قال الرئيس:

– بلغت بك الوقاحة هذه الدرجة. اليوم ساقطع رأس الفتنة.

قلت في نفسي باستخفاف: بطردي؟ هيهات.. سوف تنبت للفتنة سبعة رؤوس أخرى.

توجه إلى الآخرين قائلاً:

– ماذا ترون يا سادة؟ يبدو أن لا أمل في مثل هذا، فلاستئصال خير علاج.

وجم الجميع، وانشغل كل واحد بحركة تافهة يبذل بها

لحظة السكون والحيرة.. أما أنا فصحت في أعماقي بأعلى صوتي، ضاغطاً على الزناد مهشماً الرؤوس والأثاث: لماذا تسكتون؟ قولوها بشجاعة. الطرد.. أليس كذلك؟ ماذا تنتظرون؟ هيا عززوا جبهة التسكع والتهريب بجندي آخر مدجج بسلاح الجهل والنقمة.. إنه مُنتج لا يكلف صنعه جهداً ومالاً، اطرءوني إذن واستريحوا، واتركوا الأمانة على كتف (سيزيف) وحده، فأكتافكم تتصدع من حملها.

وقف أستاذ وقال:

- ألتمس منكم أيها السادة أن تمنحوه فرصة أخرى. صاحت مدرسة:

- وكرامتي يا أستاذ؟

سخرت منها في نفسي مقلداً نغمتها المائعة: وكغام...تي...أ است...از!! أية كرامة تدافعين عنها أيتها... هل أنت مدرسة أم...؟ ما هذا الكساء الزجاجي، وهذا الطلاء الخائر، وهذه التسريحة الذكورية. أنا أيضاً متحرر. كيفما تكوني أكن، فأنا مرآتك.. ونظرت في عين الأستاذ الواقف، فإذا هي تنطق بنفس ما أفكر فيه. أجابها بلطف ولباقة:

- كرامتك فوق رؤوسنا، وفي أعيننا يا أستاذة. وهذا التلميذ سينال عقابه (وتوجه إلى الآخرين).

لكن ليس بالفصل النهائي يا سادة. فالبتر تشويه للجسد.. هلا فحصنا أولاً، وجسنا النبض، وسبرنا أغوار الأحلام، وكشفنا عن مصدر الآلام. وصنعنا بلسمًا مستساغًا، وطهرنا مستنقعاتنا الراكدة النتنة، وصيرناها أنهاراً جارية ومروجا مزهرة عطرة...

قاطعه أحد الأعضاء في هدوء مفتعل:

- الإفراط في العطف إفساد يا أستاذ.

وصاح آخر منفعلًا:

- بل تحريض على المزيد.

نقر الرئيس برأس قلمه على المكتب وقال:

- سوف ننظر في الأمر.

انتابني شعور بالندم والحزن والخوف.. غصة في حلقي، ودفقة حارة من الدموع تكاد تنبجس من مدمعي، فلا يحصرها سوى كبريائي: هل ستلفظني مدرستي كما لفظني حضن أمي وقلب أبي؟

أيام التيه:

انفتحت أمامي في أيام الفصل المؤقت أبواب المقاهي ودور الملاهي، وآفاق المخاطرة والمغامرة والسمسرة... في حلقة هذه الظلمة خيط فجرى رفيع يضيء لي محجة الأمل، ويجذبني بقوة إلى مدرستي، إنه صدى صوت ذلك المدرس أما ما دونه من الأصوات فغثاء وهدر...

يوم موت الشيطان:

ما أخجلني اليوم، فاجأني ذلك الرجل الشامخ والظل الوارف، وأنا أنقش على طاولتي جسد أنثى، أحسست

بجسدي كله يتفصد عرقاً بارداً.. رضيت في قرارة نفسي بضربة منه تكسر رقبتني أو بزعيق يصم أذني، لكن هيهات أن تبطش يداه أو يعلو صوته.. انفرد بي بعد الدرس، وربت على كتفي، ودس في يدي شيئاً، وقال لي:

- أنت يا عبدالرحمن طاقة مهمة وموهبة مهجورة. اشتر ما يلزمك ومتع أبصارنا بما يليق ببياض محبتنا من الألوان، واسلك من السيل ما سلك ابن لقمان.

انتثر أمام عيني ثغر الكون بابتسامة هائلة وهاجة، وانفتحت أبواب بجنان الخضر، ومحيطاته وسماواته الزرقاء، وأحسست بكل ما حولي يلين ويحنو ليضمني إلى حضنه، وشعرت بهبات عبير تنفذ إلى أحشائي، وتنسف ما تبقى من شيطاني.

يوم الفوز:

تحررت هذا اليوم من رقمي، وعانقت لأول مرة نفسي لما سمعت صوتاً عالياً يهتف باسمي:

- جائزة أول رتبة يفوز بها عبدالرحمن بن لقمان.

- جائزة أحسن لوحة يفوز بها الفنان عبدالرحمن.

أحببت حينها الكتاب والسبورة والفرشاة والألوان، ووددت لو أصقل طاولتي بشغاف قلبي وأمحو منها كل خدوش الماضي بدموعي.

أيام أخرى:

كتبتها في مذكرة أخرى وقعت مني، فالمرجو ممن وجدها ألا يعيدها وأن يحيا أيامها.

بذل عماد جهداً في محاولة تذكر ملامح عبدالرحمن، لكن وجهه اختفى من مخيلته، وبقي صدى صوته وعبير عطره.. طوى الدفتر بعناية وحاول أن يدسه في جيبه فعاقته علبة (السجائر)، فأخرجها، وتذكر: سيجارة؟ لا، شكرًا. ونظر فيها باشمئزاز فوضعها تحت قدمه وسحقها ورماها من النافذة. ونظر إلى الغابة وأشجارها الهاربة مما تنفثه مؤخرة الحافلة.. فتمثلت أمامه قاعة الدرس، وهو يخطو أول خطوة على عتبتها، وجموع البشر وغير البشر تكشر عن أنيابها الصفراء وتحملق بعيونها الحمراء... فحقق قلبه وتوترت أعصابه... وسمع صوتاً كصوت عبدالرحمن يقول:

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩). فاطمأن قلبه وهدأ نبضه، فوضع قدمه على عتبة القاعة وقال مبتسماً:

- السلام عليكم.

فتهللت الوجوه واستبشرت، وساد المكان همس رقيق وعبير زكي، وحفيف صفحات بيضاء في أكف شجيرات خضراء.